التبغ والدَّخَّان نازلة دينية وبدعة اجتماعية في المغرب الأقصى في بداية القرن 17م

Tobacco and smoke, a religious and social issue in Morocco at the beginning of the 17th century

د. فيصل مبرك
المركز الجامعي بريكة
wahib.wahib952@gmail.com

تاريخ الوصول: 2018/10/02 / القبول: 2019/03/06/ النشر على الخط: 2019/03/15
Received:02/10/2018/ Accepted: 06/03/2019 / Published online: 15/03/2019

ملخص:

تعالج هذه الدراسة التاريخية المتواضعة نازلة دينية وظاهرة اجتماعية عرفها المغرب الأقصى مع مطلع الألف الثانية للهجرة وهي نازلة استعمال عشبة التبغ أو الدخان لتعديل المزاج والتداوي وغير ذلك، وسنحاول تسليط الضوء على شيء من تاريخ هذه النبتة وعلاقتها بالآفات الاجتماعية التي ظهرت في المغرب الأقصى في القرن 11هـ/ 17م، من خلال كتب مغربية معاصرة للنازلة، ويطرح المقال أيضا مقاربات بخصوص تاريخ دخولها إلى المغرب وتفشيها بين فئات المجتمع العامة والعلماء والحكام والعبيد...، وكيف تعاملت معها المصادر المعاصرة كنازلة دينية اختلفت الآراء حول الحكم عنها؟ وكيف كانت العامة ترى أنها عشبة خارقة فيها من الحكمة والسحر والفوائد ما لا يحصى؟ وأيضا كيف انتبه البعض من العلماء والصوفية وحتى العوام من عدم جدواها وأن لا معنى لها لا سلبا ولا إيجابا؟ وأن كل ما يشاع عنها عبارة عن أوهام، فهي وإن لم تضر؛ لم تنفع، في وقت خاف منها البعض وتشاءموا منها ومنهم من اعتبرها من أمارات الساعة.

الكلمات المفتاحية: التبغ، المغرب الأقصى، القرن 17، الدخان.

Summary:

This historical study concerns a social phenomenon known to Morocco at the beginning of the second millennium by the Islamic calendar, the phenomenon of the use of tobacco herb to improve human temperament, medication, etc . And we will try to introduce this plant and its relation to the social pests that emerged in the Maghreb in the 17th century, through Moroccan sources. And the article also discusses approaches regarding the date of entry into Morocco and its spread among the general society, scientists, rulers and slaves ..., How did the sources report and disagreed about the verdict? And how did the public believe that it is a supernatural herb of wisdom, magic and innumerable benefits? And also how do some of the scholars, Sufis and even ordinary people notice their futility and meaningless? And all that is rumored are illusions, at the same time afraid of some, and they thought it was the sign of the end of the world.

Key words : Tabaco, Morocco, 17th century, Smoke.

مقدمة:

اهتم الكثير من الباحثين بالدراسة والتحقيق –في العالم الإسلامي بشأن قضية التدخين، وشأن النبتة التي يستعملها الناس، واختلفوا في ذلك أيما اختلاف من حيث: أصل النبتة، وتاريخ شيوع استعمالها بين الناس، وموقف الفقهاء منها وحكم تعاطيها، وإمكانية استعمالها كعلاج لبعض أمراض ذلك العصر، غير أن تلك الدراسات كانت تعتمد على المصادر المشرقية الشامية والمصرية، دون المصادر المغربية، على الرغم من أن جل ما كتب في الموضوع يذكر أن المغرب هو أول البلدان التي شاع استعمال التبغ فيها، ومنها انتقل إلى مصر فإلى المشرق، وكانت معظم المصنفات التي تطرقت لهذا الموضوع في العصر الحديث صورته على شكل جدل فقهي محتدم بين من أفتوا بحرمته وبين من أفتوا بحليته وجواز استعماله بين المسلمين، وممن قال بإباحته الشيخ نور الدين الأجهوري (ت1066هـ)، في كتابه **غاية البيان لحل شرب ما يغيب لا العقل من الدخان**[1] وأيضا الشيخ عبد الغني النابلسي (1050 هـ - 1143 هـ)، في كتابة **الصلح بين الإخوان في حكم إباحة الدخان**[2]، فهما أشهر من أفتى بجواز استعماله، وأن من تلاهما قد اعتمد على رأييهما واستدلالاتها وحججهما في إطلاق الحكم لاحقا، في حين خالفهما الكثيرون من فقهاء العصر في مصر والمغرب، غير أن معظم الدراسات الحديثة انحصرت مباحثها في تقصي الحجاج بين الطرفين، واستظهار بعض الأدلة التي أثبتوها من خلال مصنفاتهم، وترجيح أحد الرأيين مع الأخذ أحيانا بعين الاعتبار الحكم الوسط الذي يقول بالإباحة مع الكراهة باعتبار العوارض التي تلحق بمستعمل الدخان كالسكر والتخدير والتنبيه والرائحة وما إلى غير ذلك[3].

غير أن الموضوع قد يكون أعمق بكثير إذا ما حاولنا أن نغوص في تاريخ المغرب وندرس الظاهرة دراسة تاريخية وفق رؤية سيسيو–ثقافية في مغرب القرن الحادي عشر الهجري/ السابع عشر الميلادي، آخذين بعين الاعتبار خصوصية المجتمع والذهنية السائدة في تلك الفترة، وهو القرن الذي ظهرت فيه هذه النازلة، لنخرج من مرجعية النص التاريخي المغلق إلى فعالية الفهم المنفتح.

وفي هذه الدراسة التاريخية المتواضعة سوف نحاول تسليط الضوء على شيء من تاريخ هذه النبتة وعلاقتها بالآفات الاجتماعية التي ظهرت في المغرب الأقصى في القرن الحادي عشر الهجري/ السابع عشر الميلادي، من خلال كتب مغربية معاصرة للنازلة، مثل كتاب: **الإصليت الخريت في قطع بلعوم العفريت النفريت**، لأبي العباس أحمد بن عبد الله الفيلالي[4]،

---

[1] توجد نسخة من المخطوط المذكور بجامعة الملك سعود، بالرياض تحت رقم 3106.

[2] حققه محمد أديب الجادر، ونشر في دار نينوى للنشر والتوزيع بدمشق.

[3] للمزيد حل هذه القضية أنظر: حسين أحمد الخشن، في فقه السلامة الصحية –التدخين نموذجا–، مركز ابن إدريس الحلي للدراسات الفقهية، د.م، 1428هـ، ص93 وما يليها.

[4] وهو أحمد بن عبد الله السجلماسي المعروف بابن أبي محلي ويكنى بابن القاضي، كانت ولادته سنة 967هـ/ 1559م، بمدينة سجلماسة التي ينتسب إليها، وهو من قبيلة بربرية ترجع إلى صنهاجة الساكنة على تخوم الصحراء، وأرْجَعَ المؤرخ (*Ernest Mercier*) أصله إلى قلبية مغراوة

المعروف بابن أبي محلي السجلماسي (ت1022هـ) دفين مراكش، وكذا كتاب: **الفوائد الجمة في إسناد علوم الأمة**، لأبي زيد عبد الرحمن التامناريتي (ت1070هـ) دفين فاس[1]، وأيضا كتاب مختصر **محدد السنان في نحور إخوان الدخان**، وهو اختصار لأبي سالم العاشي على كتاب عبد الكريم الفكون القسنطيني [2]، وما إلى لك في المصادر.

عشبة الدخان وإشكالية التسمية:

توجد الكثير من الأسماء الدالة على نبتة الدخان، فمن خلال المصادر والوثائق التاريخية نجد من يسمي هذه النبتة التنباك، الطبغ، التابغ، طابا، التتن، وأسماء أخرى كثيرة، وفي دراستنا هذه رمنا استعمال كلمة "الدَّخَّان"، بتشديد الدال المفتوحة، وتشديد الخاء المفتوحة أيضا، ليتكون الكلمة على وزن "فَعَّال"، وذلك لكون هذه العشبة تُخْرِجُ الدُّخَان أثناء احتراقها، ليستعمله الناس في أغراض مختلفة، هذا من جهة؛ ومن جهة أخرى لشيوع هذه التسمية في أوساط الناس حتى غطت على باقي التسميات الأخرى، كما أن باقي التسميات الأخرى ما هي إلا كلمة الدخان بلغات أخرى، وذلك مثل كلمة التتن التي أطلقت على هذه العشبة وما هي في الواقع إلا كلمة الدّخّان باللغة التركية "Tütün" والفارسية "توتون"[3]، وهو ما يؤكده الشيخ عبد

أو لمتونة الأمازيغيتين، ورغم أن ابن أبي محلي قد ادعى النسب الشريف وأن كافة عائلته تنحدر من ذرية العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه، إلا أن البعض من المؤرخين –سيما الغربيين– لا يميلون إلى تصديق نسبه الشريف، وذلك أن انتحاله النسب الشريف لم يكن إلا لتلبية بعض الأغراض السياسية، ولعل أولها ادعاؤه المهدوية، وقيامه على الملوك السعديين، توفي مقتولا سنة 1022هـ/ 1613م، للمزيد عنه أنظر فيصل مبرك، الواقع السياسي في المغرب الأقصى وأثره في سقوط الدولة السعدية 1603- 1613م، مذكرة ماجستير غير منشورة، جامعة الجزائر -2-، 2011، ص74 وما يليها.

[1] من العلماء المغاربة الموسوعيين فهو رجل علم وأدب وفقه وتصوف ومشارك في الكثير من الفنون الأخرى، أخذ عن محمد بن أحمد البَعْقِيلي في علوم القرآن، والفقه والعربية عن محمد بن عبد الرحمن الكرسيفي (ت1038هـ)، ولازم الشيخ عبد الله بن سعيد بن عبد المنعم الحاحي فانتفع به ن الناحية الروحية، رحل إلى مراكش، وأخذ فيها عن الشيخ أحمد بابا التنبكتي السوداني (ت1036هـ)، وأحمد بن عبد العزيز الحسني، وعبد الله بن علي بن طاهر الحسني السجلماسي (ت1045هـ)، أخذ أيضا في الفقه عن الشيخ ابن عاشر (ت1040هـ)، والحافظ أحمد المقري (ت1041هـ) وعبد الرحمن الفاسي (ت1036هـ)، من أشهر مؤلفاته: **وصلة الزلفى في التقرب لآل المصطفى**، وكذا **بذل المناصحة في فضل المصافحة**، أنظر: البغدادي، في هدية العارفين، وكالة المعارف الجليلة، إسطنبول، 1951، ج1، ص159، محمد البشير ظافر الأزهري، اليواقيت الثمينة في أعيان مذهب أهل المدينة، مطبعة الملاجئ العباسية، القاهرة، 1324هـ، ص ص 31، 32.

[2] كانت مخطوطة **محدد السنان**... في عداد المخطوطات المفقودة، إلى أن أشار محمد المنوني إلى وجود نسخة منها في الخزانة العامة بالرباط، وذلك بتونس عام 1974، وقد حصل أبو القاسم سعد الله على تصوير لها عن طريق عبد الجليل التميمي، للمزيد عن **كتاب محدد السنان في نحور إخوان الدخان** أنظر: أبو القاسم سعد الله، شيخ الإسلام عبد الكريم الفكون داعية السلفية، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1986، ص152 وما يليها.

[3] وفق القاموس القياسي العالمي.

الغني النابلسي* (1050– 1147 هـ/ 1641– 1731م) في كتابه **الصلح بين الإخوان في حكم إباحة الدخان**، ومن خلال عناوين المؤلفات المغربية والمصرية يظهر أن كلمة "الدخان" أشهر من غيرها في الدلالة على النبتة المقصودة في هه البلدان[1].

يسمى الدخان أيضا بالعديد من المسميات، منها التنباك، والتبغ أو الطبغ، وطابة أو طابا، وتكاد تكون كل هذه المسميات كلمة واحدة، تم تحريفا من قبل الناس حسبما يساعدهم في النطق، وعلى الرغم من هذا فإن الكثيرين يرجعون اسم التبغ إلى كلمة الإنجليزية *TOBACCO* أو الإسبانية *NICOTINA TOBACUW* المشتقة من كلمة أطلقتها بعض قبائل القارة الأمريكية على القصبة المجوفة التي كانوا يستعملونها لاستنشاق أبخرة التبغ، غير أن البعض الآخر من الدارسين ينسبون أصل الكلمة إلى مقاطعة توباكوس في المكسيك، وهذه نسبة لا تستند إلى سند علمي، ولكنها تستند إلى التقارب في حروف الكلمات وتشابه المسميات، شأنها شأن نسبة عشبة التنباك إلى مدينة (تنبكتو)، هذه المدينة وإن كانت من أوائل المدن التي عرفت الدخان في قارة إفريقيا إلا أننا لا نملك أي دليل لنقول أن تسمية التنباك أو التبغ مشتقة من اسم هذه المدينة.

أصل نبات الدخان وتاريخ دخوله إلى المغرب الأقصى:

تكاد تجمع المصادر التاريخية على أن المغرب الأقصى أول البلدان العربية التي وصل إليها التبغ منها انتقلت وفي شكل سريع إلى الجزائر ثم مصر ومنها إلى المشرق، وفي روايات تدعم بعضها بعضا يذكر أن هذه العشبة أتى بها سائس الفيل يستعملها ويزعم أن فيها منافعا، هذا الفيل الذي كان من أعجب غنائم المولى المنصور الذهبي بعد حملته على السودان، فأصل هذه العشبة إذن هو تمبكتو، حسب ما يورده الإفراني في **نزهة الحادي**...، فإن صحت هذه الرواية، فإن عشبة الدخان قد تعرف عليها العامة من المغاربة وقد كانت بالنسبة لهم عشبة في صورة لا تخلو من العجب لاقترانها بحدث غريب وهي قدوم الفيل وسائسيه، وأن معظم سكان المغرب حينها لم يكونوا قد رأوه من قبل، فلا غرو أن يستغربوا بعض الطقوس والحركات التي كان سائس الفيل يقوم بها بل ويتقنها، فلا يستبعد أن يعتبره البعض منهم ساحرا أو حكيما؛ قدم إليهم من بلاد عرفت بالغرابة والغموض، وفي

* شاعر وعالم بالدين، وذو نزعة صوفية، ولد بدمشق وقام برحلات عديدة زار خلالها بغداد ولبنان ومصر والحجاز، وعلى الرغم من أن له مصنفات كثيرة إلا أن أكثرها رواجًا مصنفه في تفسير الأحلام بعنوان: **تعطير الأنام في تعبير المنام**، وترجع شهرة النابلسي في مجال الجغرافيا إلى كتاباته التي تمثل نمطًا من أنماط الجغرافية السياحية مثل كتبه: **الحضرة الأنسية في الرحلة القدسية، الحقيقة والمجاز في رحلة الشام ومصر والحجاز؛ التحفة النابلسية في الرحلة الطرابلسية، حلة الذهب الإبريز في رحلة بعلبك والبقاع العزيز**؛ وله كتاب يتضمن كثيرًا من الجغرافيا الزراعية هو كتاب **علم الفلاحة**.

[1] من المؤلفات المشرقية نذكر عنوان: **رسالة في حرمة التتن**، تكرر كثيرا في المصنفات لدى داوود بن الحسن الجزائري البحريني، خليل بن الغازي القزويني ومحمد بن الحسن الحر العاملي من أئمة الشيعة، وكذا مرعي بن يوسف الكرمي الحنبلي في رسالته **التحقيق والبرهان في شأن الدخان الذي يستعمله الناس الآن**، أما مؤلفات المغاربة والمصريين في هذا الشأن فأشهرها: **نصيحة الإخوان باجتناب الدخان** لإبراهيمي اللقاني المالكي المصري، وأيضا **محدد السنان في نحور إخوان الدخان** لعبد الكريم الفگون القسنطيني، وكذا **تحفة الإخوان في تحريم الدخان** لعبد القادر الراشدي القسنطيني، الإصابة في حكم طابا لأحمد بابا التمبكتي وغيرها كثير.

هذا المقام يذكر محمد الصغير الإفراني في **نزهته**...: «وَبِسَبَبِ دُخُولِ هَذِهِ الْفِيَلَةِ لِلْمَغْرِبِ ظَهَرَتْ هَذِهِ الْعُشْبَةُ الْخَبِيثَةُ الْمُسَمَّاةُ تَبْغَة، لِأَنَّ السُّودَانَ الَّذِينَ قَدِمُوا يَسُوقُونَ الْفِيَلَةَ قَدِمُوا بِهَا يَشْرَبُونَهَا وَيَزْعَمُونَ أَنَّ فِيهَا مَنَافِعَ، فَشَاعَتْ...»[1] .

أما عن سابق معرفة للعرب لهذه النبتة فيقول محمد مرتضى الحسيني الزبيدي (ت1205 هـ /1791م) في كتابه **هدية الإخوان في شجرة الدخان**؛ أن من ينكر معرفة العرب لها قبل القرن العاشر الهجري فهو زعم فاسد، فهي مذكورة لدى أبي حنيفة الدينوري (ت282هـ) في كتاب **النبات**، لما أكد أن لها ذكر في **جمهرة** ابن دريد (ت223هـ)، **وتهذيب** ابن سيده (ت458هـ) **وصحاح** الأزهري وغيرها، ونقل الزبيدي في قاموسه **تاج العروس** عن كتاب **النبات** قول أبي حنيفة: «أَخْبَرَنِي بَعْضُ أُزْدِ السُّرَاةِ قَالَ: "هُوَ شَجَرٌ نَحْوَ القَامَةِ يَنْبُتُ مُتَجَاوِرًا لاَ نَكَادُ نَرَى وَاحِداً مِنْهُ مُنْفَرِداً وَلَهُ أَوْرَاقٌ طِوَالٌ دِقَاقٌ خُضْرٌ تَتَلَزَّجُ إِذَا غُمِزَتْ ...، وَلَهُ نُورٌ أَصْفَرُ مُجْتَمِعٌ وَلاَ تَأْكُلُهُ الإِبِلُ .. وَمَنَابِتُهُ الصَّخْرُ مَعَ العَرْعَرِ...»[2]، وعلى كل حال واستناداً على ما قاله الزبيدي، وبما أن هذا النبات كان معروفاً عند العرب سواء في المشرق أو في الأندلس، فإن أصل كلمة (توباكو) قد يكون عربيا، وما هو إلا تحوير لكلمة (الطُّبّاق) العربية التي أطلقها العرب على هذا النبات، فأبقاها الأوربيون في لغاتهم بعد تحويرها كما حدث مع الكثير من الكلمات العربية الأخرى التي دخلت لغاتهم، وعندما تَعَرَّفَ العرب على الدخان؛ عَرَّبُوا كلمة (توباكو) إلى كلمة التبغ.

والتنباك أو المسمى بالدخان، من المحدثات في آخر هذا الزمان، وقد أرَّخ حدوثه جماعة، ومنهم: أبو الحسن المصري الحنفي رحمه الله، حيث نقل عنه ابن المنقور في: **الفواكه العديدة**...، أنه قال: «وَكَانَ حُدُوثُهُ فِي حُدُودِ الأَلْفِ، وَأَوَّلُ خُرُوجِهِ بِأَرْضِ اليَهُودِ، وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوس»[3]، وقيل أن من أتى به رجل يهودي يدعي أنه حكيم إلى أرض المغرب[4]، غير أن بعض المصادر التاريخية تشير إلى وجود عشبة التبغ وتدخين الحشيشة وتعاطيها قبل هذا التاريخ، فنجم الدين محمد بن محمد الغزي (ت1061هـ/ 1650م) وهو صاحب كتاب **الكواكب السائرة في أعيان المائة العاشرة** يشير إلى الشيخ عبد الله المجذوب، (ت 937هـ/ 1530م)، وأنه كان ذا كرامة، فمن أخذ من عنده الحشيش تاب إلى الله ولم يرجع لشربها أبدا، وكان يقول: «وَعِزَّةِ رَبِّي مَا أَخَذَهَا أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ اليَدِ وَعَادَ إِلَيْهَا... »[5].

---

(1) محمد الصغير الإفراني، نزهة الحادي بأخبار أهل القرن الحادي عشر والثاني، تحقيق السيد هوداس، مطبعة بردين، أنجي، 1888، ص162.

(2) مرتضى الزبيدي، تاج العروس، دار الهداية، عمان الأردن، د.ت، ج26، ص55، نقلا عن أبي حنيفة الدينوري في كتاب **النبات**.

(3) أحمد بن محمد المنقور التميمي، الفواكه العديدة في المسائل المفيدة، ط5، الناشر عبد العزي عبد العزيز المنقور، شركة الطباعة العربية السعودية، 1987، ج2، ص80.

(4) مرعي بن يوسف الكرمي، تحقيق البرهان في شأن الدخان الذي يشربه الناس الآن، دار ابن حزم للطباعة والتوزيع والنشر، ط1، بيروت، 2000، ص93.

(5) نجم الدين محمد بن محمد الغزي، الكواكب السائرة في أعيان المائة العاشرة، تحقيق خليل المنصور، دار الكتب العلمية بيروت، ط1، 1997، ج2، ص ص153، 154.

أما الطبيب الشهير داوود الأنطاكي (ت1008هـ/ 1599م) في مصنفاته الطبية الكثيرة* عن عشبة الدخان، الذي ذكرها مثلا في كتاب **التذكرة**...: «الطُّبّاق: يُسَمَّى شَجَرَةُ البَرَاغِيثِ يَطُولُ نَحْوَ قَامَةٍ ... وَلَهُ زَهْرٌ إِلَى الصُّفْرَةِ ... إِذَا افْتُرِشَ أَوْ رُشَّ طَرَدَ الهَوَامَّ خُصُوصًا البَرَاغِيثَ...»[1]، ويطابق وصف الانطاكي لحقيقة هذه النبتة في شكل أوراقها وأزهارها ووقت ظهورها في السنة، غير أن جال الدين يوسف الجويني في كتاب **ما لا يسع الطبيب جهله** الذي هو في الأصل شرح لتذكرة الأنطاكي يذكر أن الطباق المذكور في التذكرة هو نفسه التتن، وأنه اسم عربي لنوع من النبات كان شائعا في الأندلس له رائحة ثقيلة وهو نفسه شجرة البراغيث.

أما في الجزائر وتونس فقد جاء ذكر عشبة الدخان واستعمالها بين الناس منذ السنوات الأولى التي ظهرت فيها هذه الظاهرة الاجتماعية غير المألوفة، فأبو القاسم سعد الله يذكر أن من أوائل من تعرضوا لمناقشة هذه الظاهرة أحمد لن محمد المقري التلمساني وعبد الكريم الفكون[2]، وكان الشيخ عبد الكريم الفكون قد ألف فيها رسالة عنونها بـ: **محدد السنان في نحور إخوان الدخان**، وهي رد جريء وعنيف على الكثير ممن تكلم في القضية وتساهل معها من الناحية الفقهية، وكان الفراغ من تأليف الشيخ الفكون لرسالته المذكورة هو 1025/ 1616م، وهو حينئذ صاحب 26 سنة، ويفيدنا عبد الكريم الفكون في محاولة تقدير الوقت الذي استشرت فيه هذه النازلة في الشرق الجزائري وتونس بقوله: «وَكُنْتُ أَوَّلَ مَا فَشَا شُرْبُهُ أَعْنِي الدّخانَ بِهَذِهِ الْبَلْدَةِ عَلَى جَوَابٍ فِيهِ يَذْكُرُ أَنَّهُ لِمُفْتِي الْقَيْرَوَان... وَلَمْ آخُذْ فِيهِ بِالْحَزْمِ حَتَّى أَحْفَظَهُ أَوْ أَنْسَخَهُ تَهَاوُنًا بِشَأْنِ الْمَسْأَلَةِ إِذْ ذَاكَ، لَمَّا لَمْ أَظُنَّ يَصِيرُ أَمْرُ الدّخانِ إِلَى مَا شَاهَدْنَاهُ...»[3]، ومن خلال هذا يمكن لنا تقدير سنة دخول الدخان إلى الجزائر كان في حدود سنة 1020هـ/ 1611م، وأن سنة استفحاله هو سنة 1023، حتى 1025هـ، وهي السنة التي عزم الفكون على الرد على مستعمليها والتحذير من خطرها، وهذا ما حكاه الفكون في **محدد السنان**... ونقله أبو سالم العياشي في **رحلته**[4].

أما مصر؛ فأول من أدخل استعمال الدخان إليها حسب الشيخ محمد عليش صاحب **الفتاوي** الشهيرة هو أحمد بن عبد الله بن أبي محلي صاحب كتاب **الإصليت**...، وهو الفقيه الثائر على الملوك الأشراف السعديين في المغرب[5]، وأن دخوله كان

---

* أهم هذه الكتب والمصنفات: **التذكرة، نزهة الإنسان في إصلاح الأبدان، كفاية المحتاج في علم العلاج**.

[1] داوود الأنطاكي، تذكرة أولي الألباب والجامع لعجب العجاب، وبهامشه النزهة المبهجة في تشحيذ الأذهان وتعديل الأمزجة، طبعة حجرية، ج1، ص235.

[2] أبو القاسم سعد الله، مرجع سابق، ص152.

[3] أبو سالم العياشي، ماء الموائد، تحقيق وتقديم سليمان الفاضلي وسعيد القرشي، ط1، دار السويدي للنشر والتوزيع، أبو ظبي، 2006، ج2، ص226.

[4] المصدر نفسه، ج2، 226.

[5] أنظر عنه فيصل مبرك، مرجع سابق، ص75، وما يليها، وانظر أيضا عبد المجيد قدوري، ابن أبي محلي الفقيه الثائر ورحلته الإصليت، منشورات، عكاظ، الرباط، 1991، ص37 وما يليها.

في نهاية القرن العاشر الهجري، كما ذكر أن الشيخ سالم السنهوري هو من تصدى لبدعته تلك[1]، غير أن هذا الرأي –وإن كان فيه من الحقيقة–؛ فإن فيه نوعا من التعسف في حق أحمد بن أبي محلي.

لهذا يمكن أن نقول أن نبات الدخان كان معروفا لدى العرب والمسلمين في المشرق والمغرب والأندلس؛ ولكنهم كانوا لا يستعملونه إلا لأغراض عملية وطبية، أما تعاطيه بالشرب والاستنشاق فقد كان متأخرا إلى بداية الألف الثانية من الهجرة، وقد يحتاج شارب الدخان إلى حمل الزناد معه والحجر من الصوان، وإلى منكاش من الحديد ليزيل به ما لصق في الغليون من آثار التبغ اليابس فيه، ويحتاج أيضاً إلى كيس من القطن أو كتان أو نحو ذلك يكون فيه التبغ مسحوقا، وبعضهم يكتفي بوجودها مع غيره وبعضهم يكتفي بعود من الأرض بدل المنكاش وقضيب الشريط وللناس في ذلك عادات كثيرة.

انتشار التدخين في العالم العربي والإسلامي:

لم يستعمل العرب التبغ للتدخين سواءً في الجاهلية أو في الإسلام ولكنه انتقل إليهم في العصور المتأخرة، وأن بداية ظهور التبغ في البلاد العربية لا يمكن معرفته على وجه التأكيد، فقد اختلف الباحثون اختلافاً بَيِّنًا في تحديد ذلك التاريخ ومع ذلك فإن اختلافهم هذا ينحصر بين سنتي 999 و1020 الهجريتين، أي بين سنتي 1590 و1611م بالتاريخ الميلادي وقد استشهد بعض الباحثين بشاعر مجهول، قالوا أنه أرخ ظهور التبغ في بلاد الشام يقول:

سَأَلُونِي عَنِ الدُّخَانِ وَقَالُوا *** هَلْ لَهُ فِي كِتَابِنَا إِيمَاءُ

قُلْتُ مَا فَرَّطَ الْكِتَابُ بِشَيْءٍ *** ثُمَّ أَرَّخْتُ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ

أي ﴿يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ﴾[2]، فإذا صح ما قيل على لسان الشاعر، يكون ظهور التبغ فيها سنة 999هـ الهجرية وهو حساب حروف "تأتي السماء" بالجمل[3]، المقابلة لسنتي 1590 أو1591م الميلاديتين أي بعد قرن كامل من اكتشاف الأوربيين له، وعرف في الشام سنة 1015هـ الموافقة لسنتي 1606 و1607م في العام التالي لظهوره في تركيا على وجه التقريب.

وإذا رجحنا الاعتقاد بأن التبغ ظهر في بلاد الشرق العربي عن طريق تركيا، أو عن طريق الموانئ الأوربية على البحر الأبيض فيبدو أن ظهوره، في بلاد المغرب العربي كان عن طريق آخر، فقد ذكر أحمد بن خالد الناصري في كتابه **الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى***، أن التبغ – وسماه التابغ– ظهر في مراكش منقولاً من بلاد السودان التي تعرف الآن بجمهورية مالي في سنة 1001هـ الهجرية المقابلة لسنتي 1592 و1593م الميلاديتين، وكان ذلك عقب حملة أحمد المنصور الذهبي على بلاد السودان،

---

[1] محمد عليش، فتح العلي المالك في الفتوى على مذهب الإمام مالك، دار المعرفة، د.م، د.ت، ج1، ص118.

[2] سورة الدخان، الآية 10.

[3] تجدر الإشارة إلى أن هناك اختلاف بين حساب الجمل لدى المغاربة وبين المشارقة، لهذا فإن عبارة "يوم تأتي السماء" لا توافق حساب الجمل كما هو معروف لدى المغاربة.

*نجد أن أحمد بن خالد الناصري في هذه المسألة ينقل عن محمد الصغير الإفراني نقلا حرفيا، مع بعض الزيادات والتصرف الطفيف، أنظر محمد الصغير الإفراني، مصدر سابق، 1888، ص162.

إذ أتى بفيلة من تلك البلاد يسوقها نحو مراكش –في يوم مشهود– حظره الرجال والنساء والعجائز والصبيان، ثم مضى بالفيل إلى مدينة فاس بتاريخ 16 رمضان 1007هـ/ أبريل 1598م، وخرج من الفاسيين نحو مائة ألف نسمة يشاهدون الفيلة، وكان سواس الفيلة يتعاطون الدخان ويشربونه، كما وأشاعوا أن تعاطي هذه العشبة فيه الكثير من المنافع لصحة الجسم والبدن[1]، ومن الضروري أن نشير إلى أن التاريخ المذكور لدخول الفيلة مدينة فاس ليس هو بالضرورة شيوع استعمال الدخان ووصوله إلى مدينة فاس –كما أشار إليه الكثير من المهتمين بالموضوع–، فقد يكون وصول الدخان قبل وصول الفيلة إلى مدينة فاس، وذلك أ بمكوث سواس الفيلة في مدينة مراكش واستعمالهم هذه العشبة وإشاعتهم استعمالها في أوساط المراكشيين، لم يبق الدخان حكرا عليهم، لذا فلا نستبعد أن تكون هذه العشبة قد استعملت قبل سنة 1007هـ، أي قبل وصول الفيلة إلى المدينة.

على الرغم من أننا لا نملك دليلا واضحا يبين لنا التاريخ الفعلي الذي ظهرت فيه عشبة الدخان، وذلك لتضارب الروايات واختلافها، وعدم الدقة في الروايات التي معظمها عبارة عن تقريبات فقط، فتحديد سنة ظهور الدخان في البلاد العربية والمغرب الأقصى خصوصا لا يمكن ضبطه بالتدقيق، غير أنه من الواضح أن انتشار استعمال هذه العشبة بين الناس كان سريعا جدا، ومن المفترض أن نجد أن أحمد بابا التمبكتي السوداني؛ والذي كان ضمن أسرى المولى المنصور خلال حملته على السودان، يذكر ولو إشارة تفيد أن قدوم هذه العشبة كان من السودان في كتابه **اللمع في حكم الطبغ** بشيء من التفصيل، يزيد عما أورده الأديب الشاعر محمد بن أبي بكر السوسي[2] الذي يذكر في قصيدته:

بَدَتْ فِي سَمَاءِ الْمَجْدِ نُزْهَةُ رَامِقِ *** فَدَانَ لَهَا طَوْعًا شُعَاعُ الْمَشَارِقِ
أُحِبُّ لَهَا السُّودَانَ حَتَّى كَأَنَنِي *** سُحِرْتُ بِهَا أَوْ مَسَّنِي طَيْفُ طَارِقِ
وَلَمْ تَبْدُ قَبْلَ الْيَوْمِ لِلنَّاسِ حِكْمَةً *** خَفَتْهَا عَلَيْهِمِ فِي السِّنِينِ السَّوَابِقِ
إِلَى أَنْ بَدَى الْمَنْصُورُ قُطْبًا أَتَتْ لَهُ *** تَقُودُ جُيُوشَ الْغَرْبِ نَحْوِ الْمَشَارِقِ[3]

والتاريخ الذي يذكره كل من الإفراني والناصري مخالف لما جاء به محمد بن علي البوسعيدي في كتابه **بذل المناصحة**، فتحديده لتاريخ هذا الحدث وهو 1005. 1006هـ/ 1597. 1598م[4]، وهو بذلك ينفرد بهذا التاريخ مخالفا غيره من المصادر التي تلي، غير أنه يتفق مع في هذا التأريخ مع ما أورده الشيخ إبراهيم اللقاني* في رسالته **نصيحة الأخوان باجتناب**

---

[1] أحمد بن خالد السلاوي الناصري، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق محمد الناصري وجعفر الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1955، ج5، ص126.

[2] لم أقف له على تعريف كاف إلا إشارة في كتاب **سوس العالمة**، وأن له رسالة في السؤال عن حكم التدخين بتاباغا –التبغ–، والتي أجاب عنها السيد عبد الله بن يعقوب، المختار السوسي، سوس العالمة، مطبعة فضالة، المحمدية، المغرب، 1960، ص187.

[3] سعيد بن أبي بكر السوسي، قصيدة مخطوطة في التبغ، مؤسسة مؤسسة الملك عبد العزيز، الدار البيضاء.

[4] محمد العربي الفاسي، سهم الإصابة في حكم طابة، مخطوط، مؤسسة آل سعود للدراسات الإسلامية والعلوم الإنسانية، رقم 02168-65.

* أبو إسحاق إبراهيم بن الحسن بن علي اللقاني المالكي المصري المتوفى سنة1041هـ، يصفه عبد الحي بن عبد الكبير الكتاني في كتابه فهرس الفهارس والأثبات معجم المعاجم والمسلسلات بقوله: «... عَالِمُ مِصْرَ وَإِمَامُهَا، أَحَدُ الأَعْلاَمِ المشَارِ لَهُمْ بِسِعَةِ الإِطِّلاَعِ فِي عَلْمِ الحَدِيثِ وَالتَّبَحُّرِ فِي بَقِيَّةِ العُلُومِ...»، من مؤلفاته **قضاء الوطر في توضيح نخبة الفكر للحافظ ابن حجر**، و**إجمال الرسائل وبهجة المحافل في التعريف**

الدخان، أن شجرة التبغ ظهرت في مدينة تنبكتو سنة 1005هـ/ 1596م، أما في القطر المصري فإن أول دخول أوراق التبغ كان سنة 1010- 1011هـ/ 1601– 1602م، أما عن انتشار الدخان في المغرب الأقصى وفي إشارة من الناصري لسرعة ذلك فقد كتب: «...فَشَاعَتْ مِنْهُمْ فِي بِلاَدِ دِرْعَةَ وَمُرَّاكُشَ وَغَيْرِهِمَا مِنْ بِقَاعِ المغْرِبِ...» [1].

وفي كتاب **الفوائد الجمة...** للتمنارتي؛ يذكر أن عبد الله بن المبارك الآقاوي ت1015هـ، وهو ابن علي بن الولي الصالح محمد بن المبارك الآقاوي أن هذه العشبة وردت من السودان فانكب عنها العوام من الناس يشترونها بالمال، ويذكر أنه هو أيضا استعملها لعدة أيام فلم يجد فيها نفعا ولا فائدة، بل على العكس مما يشيعه الناس، فقد أصبح يشكو ضعفا في قوته ومفاصله وصاحب ذلك سعال شديد[2]، غير ان التمنارتي في اول حديثه عن هذه العشبة ذكر أن قدومها كان من جهة القبلة[3]، فهل كان يقصد بذلك بلاد السودان التي تقع إلى القبلة قليلا مع الجنوب من بلاد سوس؟ !

شيوع الدخان في المجتمع المغربي:

يتبين جليا من خلال العدد الكبير الذي حظيت به هذه النازلة من نقاشات وجدالات مستفيضة بين العلماء شيوع هذه النبتة بين الناس في المغرب الأقصى، وكثر في ذلك الإفتاء والاختلاف بين تحليل وتحريم لاستعمالها، فمن العلماء الذين أفتوا في هذه المسألة نذكر قاضي درعة أحمد بن محمد البوسعيدي، ومحمد السوسي (1023 هـ)، أَلَّفَ فيها رسالة سماها **كشف الغسق عن قلب الفتى في التنبيه على تحريم دخان الورق،** وأبو القاسم بن أبي النعيم الغساني، ومحمد العربي الفاسي وله فيها رسالة سماها **سهم الإصابة في حكم طابة،** وأحمد بابا السوداني المتمبكتي[4] له **اللمع في حكم شرب طبغ،** وأحمد بن عبد الله السجلماسي الفيلالي المعروف بابن أبي محلي، الذي خصص فصولا كاملة للكلام عن هذه العشبة في كتابه **الإصليت الخريت في قطع بلعوم العفريت النفريت،** وكذا أحمد بن علي البوسعيدي الذي خصص لها فصلاً في **بذل المناصحة،** كما ذكرها

برواة الشمائل، وله فهرسه سماها **نشر المآثر فيمن أدرك من أهل القرن العاشر،** عبد الحي الكتاني، فهرس الفهارس والأثبات معجم المعاجم والمسلسلات، تحقيق إحسان عباس، ط2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1982، ج1، ص130.

[1] أحمد بن خالد الناصري، مصدر سابق، ص126.

[2] عبد الرحمن التمنارتي، مصدر سابق، ص484.

[3] المصدر نفسه، ص476.

[4] ينسب للسودان دارا، غير أن أصله من صنهاجة، من قبيلة مسوفة، برع في الكثير من الفنون وبرع في الكثير من الفنون منها الفقه والحديث واللغة والأوصول والتاريخ، كان كثير الطلب للعلم والمناظرة، له تآليف كثيرة وأجوبة على الكثير من الإشكالات والنوازل، اشتهر بكتاب **نيل الابتهاج بتطريز الديباج،** وهو تذييل وتكملة لكتاب **الديباج المذهب** لابن فرحون، وله تكملة على الديباج سماها **كفاية المحتاج فيمن ليس بالديباج،** أسره المولى المنصور الذهبي السعدي خلال اجتياحه لبلاد السودان واقتاده إلى مراكش، فعرف ذلك في التاريخ المغربي بمحنة أحمد بابا التمبكتي ، راجع عنه، محمد بن الطيب القادري، نشر المثاني...،مصدر سابق، ج1، ص- ص،271- 276، أحمد المقري التلمساني، روضة الآس عاطرة الأنفاس في ذكر من لقيته بمراكش وفاس، ص303، محمد مخلوف، شجرة النور الزكية، ج1، ص432، محمد الصغير الإفراني، صفوة من انتشر...، مصدر سابق، ص114، عبد الله المرابط الترغي، فهارس علماء المغرب منذ النشأة إلى نهاية القرن الثالث عشر للهجرة – منهجيتها تطورها، قيمتها العلمية، ط1، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، تطوان، 1999، ص639.

صاحب **الفوائد الجمة**... في فصلين، وكذا عبد القادر الفاسي في **أجوبته الكبرى**، ومحمد ميارة في **زبدة الأوطاب**؛ وبدر الدين الحمومي، ومحمد المرنيسي، وأحمد الرهوني، ومصطفى الرماصي، وعبد المجيد بن علي الزبادي المنالي في رحلته **بلوغ القصد والمرام**، ومحمد بن الحسن بن عرضون الشفشاوني، ومحمد الصغير الإفراني في **النزهة**، وكذا محمد بن الطيب القادري في **نشر المثاني**...، وغيرهم من رجالات القرنين السابع عشر والثامن عشر الميلادي، فهناك علاقة بين الانتشار الواسع الذي عرفته استعمالات هذه العشبة في أوساط المجتمع المغربي منذ مطلع القرن الحادي عشر الهجري السابع عشر الميلادي وبين الاهتمام الأوفر الذي حظيت به عند جمهور العلماء والفقهاء في المنطقة، وهو ما عبر عنه محمد الصغير الإفراني بقوله: «... فَشَاعَتْ مِنْهُمْ فِي بِلاَدِ دِرْعَةَ وَمُرَّاكُشَ وَغَيْرِهِمَا مِنْ بِقَاعِ المَغْرِبِ وَتَعَارَضَتْ فِيهَا فَتَاوَى العُلَمَاءِ رِضْوَانُ اللهِ عَلَيْهِمْ فَمِنْ قَائِلٍ بِالتَّحْرِيمِ وَمِنْ قَائِلٍ بِالتَّحْلِيلِ وَمُتَوَقِّفٌ وَالعِلْمُ فِيهَا عِنْدَ اللهِ سُبْحَانَهُ...» [1].

استعمال الدخان للتداوي:

لا غرو أن مدعي الحكمة والطب في المغرب خلال القرن السابع عشر يميلون إلى الغرائبيات وهو ما ميز الذهنية في ذاك العصر، كما أنه من الجدير أن الكثير ممن ادعوا الطب أو اشتهروا فيه لم تكن لهم واسع دراية واطلاع في هذا المجال، لهذا فإننا لا نجد أمثال ابن زهر الإشبيلي ولا علي بن الحسين الرئيس ولا أبو القاسم الزهراوي من أطباء العصر الوسيط ممن ألفوا في الطب موسوعات ورسائل، بل لا نجد أمثال الأنطاكي الذي عاش في القرن 16م، بل إننا نجد من يشتهر بالطب ولكنه بسيط المعرفة عامي التفكير إلى حد السذاجة.

ولا بد أن يدعي المدمنون على عشبة الدخان أن لها علاقة بالتداوي وتعديل الأمزجة، لما لمسوه من تأثيرها في ثقل الرأس وتخدير الحواس، ولا سيما تأثيرها على المدمن بالاسترخاء بعد التوتر وفي هذا الصدد سآخذ موقف أحمد بن أبي محلي السجلماسي في كتابه **إصليت الخريت في قطع بلعوم العفريت النفريت**، الذي كتب رسالة يسأل فيها عن حكم استعمال عشبة الدخان وذكر أنه اضطر «لِاسْتِعْمَالِ دُخَانِ الشَّجَرَةِ الْمَذْكُورَةِ الْمَشْهُورَةِ النَّفْعِ بِالتَّجْرِيبِ !! في دفع مضار سموم نازلة »[2]، وعلى الرغم من أنه يميل إلى جواز استعمالها إلا أنه يشير أنه توقف عنها لأنه رأى في حقها فتوى للشيخ سالم السنهوري المصري المالكي ورسالة شخص من السودان[3] وآخر من من فقهاء سوس[4]، ولم يرد أن يكون مقلدا في تحريمها حتى يتبين أمرها

---

[1] محمد الصغير الإفراني، مصدر سابق، ص162.

[2] أحمد بن أبي محلي، إصليت الخريت في قطع بلعوم العفريت النفريت، تحقيق عبد المجيد قدوري، منشورات عكاظ، الرباط، 1991، ص149.

[3] تجدر الإشارة أن أحمد بن أبي محلي تفادى ذكر اسم السوداني الذي هو أحمد بابا، ولكنه اكتفى بتلقيبه بالسوداني في إشارة همز ولمز وازدراء ولعل هذا راجع إلى معارضته للحكم الذي أطلقه في العشبة وإغلاظ الكلام لكل من يرى بحليتها.

[4] وهو القاضي البوسعيدي، والذي سيذكر أن جوابه على السؤال لا يقطع الشك باليقين على الرغم من مقامه العلمي الرفيع.

ويحصل على حكم صريح فيها[1]، وفي النهاية يصل الجواب إلى ابن أبي محلي وهو كالتالي: « الْحَمْدُ لِلَّهِ، إِذَا لَمْ تُضِرَّ بِالْعَقْلِ لَا يُحْرَمُ اسْتِعْمَالُهَا –وَاللهُ أَعْلَمُ– كَتَبَهُ عَلِيٌّ الزِّيَادِي –كَانَ اللهُ لَهُ– »[2].

ولا يهمنا في هذا المقام دفاع أحمد بن أبي محلي عن الدخان واحتجاجه بالقواعد الفقهية الكثيرة كاهتمامنا باستعمال هذه العشبة للتداوي فهو في هذا الشأن يذكر أن الناس الذين لم يتعودوا عليها سيشعرون بالخدر والتعب، ولكنهم إذا شربوها بالتدريج حتى يستأنسها الجسم ويألفها الطبع، ستكون كسائر الأدوية، فلا يمكن للمريض أن يضرب نفسه باستعمال جرعة كبيرة من الدواء مهما كان هذا الدواء، لأنه سينقلب إلى مضرة، وحسب رأيه؛ هذه قاعدة عامة مشروطة "وَمَنْ خَالَفَهَا فَهُوَ مُخْطِئٌ لِطَرِيقَةِ الطِّبِّ أَوْ جَاهِلٌ بِأَحْكَامِ الرَّبِّ وَإِثْمُهُ عَلَى جَهْلِهِ وَذَمُّهُ عَائِدٌ عَلَيْهِ"[3]، ولا ينطبق هذا التصرف الخطأ على ماهية الدواء الذي تناوله.

أما الأديب الشاعر ابن سعيد بن أبي بكر السوسي الهلالي فقد ذهب في هذا الرأي كل مذهب، في قصيدته القافية المشهورة في المغرب في أوائل القرن 11هـ، وأن ما لو يشرح مما يعرف من منافعها لكاد الناس يكذبونه في ذلك، فهي تتذهب أخلاط البلغم، وتنفع في الداء الصفراوي بسرعة فائقة، كما أنها أقوى علاج لسم العقارب، وتعالج اضطراب خفقان القلب وغير ذلك مما يكون النقل فيه أبلغ من الشرح:

لَهَا قُوَّةٌ تَنْفِي بِهَا خَلْطَ بَلْغَمٍ *** وَتُذْهِبُ بِالصَّفْرَاءِ فِي لَمْحِ بَارِقِ
وَتُذْهِبُ أَخْلَاطَ الدِّمَاءِ لِحِينِهَا *** وَتَفْتَحُ لِلسَّوْدَاءِ سُودَ الْخَوَانِقِ
وَمَا مِثْلُهَا شَيْءٌ لِلَسْعَةِ عَقْرَبٍ *** وَفِيهَا سُكُونٌ لِلْقُلُوبِ الْخَوَافِقِ
وَفِيهَا شِفَاءٌ لِلسُّمُومِ جَمِيعِهَا *** وَأَفْعَالُهَا فِي الْهَضْمِ مِثْلَ الْخَوَارِقِ
وَفِيهَا وَفِيهَا لَسْتُ أُحْصِي نَفْعَهَا *** فَكَمْ حِكْمَةٌ فِيهَا وَكَمْ مِنْ مُرَافِقِ
وفيها شفاء للزكام إذا عدا *** وفيها أمان من رياح الطوارق[4]

ولكن الأديب المذكور يرجع إلى أمر مهم جدا من الناحية الصحية، هو أن استعمالات هذه النبتة في التداوي تقتصر فقط على استنشاقها في شكل دخان، أما أكلها سواء مطبوخة أو طازجة أو شربها مائها فهو خطير جدا يجب الابتعاد عنه وهو في ذلك يقول:

وَلَكِنْ عَلَى قَانُونِ شَرْعٍ دُخَانِهَا *** حَكَمْتُ فَبَاعِدْ أَكْلَهَا ثُمَّ فَارِقِ

ولا يسعنا في هذا المقام استعراض كل ما جاء به القاضي أحمد بن محمد البوسعيدي الهشتوكي في كتابه **بذل المناصحة في فضل المصافحة**، لأنه لا يخرج عن مناقشة الأمور الفقهية ومحاولة الفصل في شأنها بالتحليل أو التحريم، فهو يرى أن الفقهاء

---

[1] أحمد بن أبي محلي، مصدر سابق، ص149.
[2] المصدر نفسه، ص150.
[3] المصدر نفسه، ص152.
[4] سعيد بن أبي بكر السوسي، مصدر سابق.

في مصر والمغرب ينقسمون إلى قسمين حسب اختصاصاتهم العلمية، فالمختصون في علم الأصول يميلون إلى التحليل لكثرة نظرهم إلى الأصل، أما من اشتهروا بالعلم والصلاح –كما يصفهم- فيميلون إلى التحريم، نظرا لتلك الهيئة الكريهة التي ليست بطعام نافع ولا مشروب ماتع، فهو في ذلك يميل إلى التحريم ويستدل بما قاله الكثيرون ممن ألفوا في هذا المجال ومنهم العربي الفاسي وعلي بن طاهر الحسني القاضي أبي نعيم وعبد الكريم الفكون وغيرهم، ولكنه يشير إلى أن هذه النبتة كانت معروفة بجشرة القمر أو شجرة القمل، ثم يضيف أن فيها ماء يعتصر ويدهن به شعر الرأس فلا تبقى فيه قملة واحدة[1]، كما بين أن تلك القوة التي تقتل القمل هي التي تؤثر على مستعمله لاستنشاق دخانه.

ويبدو أن النزعة العلمية والتجريبية في مناقشة مثل هذه القضايا تكاد تكون منعدمة تماما، لغلبة أسلوب النقل الحرفي واستعراض الحفظ وإثبات الموسوعية في السؤال والجواب معا، وأن الاحتكام للعقل مقتصر فقط على مقابلة المسائل بالقياس على ما سبق من مؤلفات الأولين، وملاحظات الحسن الوزان في هذا المجال دقيقة جدا[2]، إذ يذكر أن بعض العلوم التي يتناقلها الناس تكون بطريقة عامية أكثر منها علمية، وهذا شأن كل العلوم في ذلك العصر، فالحسن الوزان لاحظ أن في علم الفلك مثلا؛ تجد الفلاحين في غاية الأمية ولكنهم يحسنون الكلام بإسهاب فيه[3] ولكنه مجرد كلام محفوظ، كما يؤكد على تراجع مهنة الطب أو لنقل انعدامها أحيانا، حتى أن كثيرا من الناس يعتبرون أمراض المعدة من أمراض القلب !! وكثيرا ما كانت مهنة الطب تمتزج بالشعوذة والتعاويذ والسحر والطلاسم، ويذكر الحسن الوزان نفسه أن العرافة والكهانة كانت مشهورة ومنتشرة في المغرب الأقصى سيما في فاس، ومنهم أصحاب خط الرمل وخدام الشياطين وهم الذين يستحضرون الجان والمعَزِّمين والزَّايَرْجِيَّة، وكذا أصحاب أسرار الحروف والباحثون عن الكنوز والكيميائيون[4].

بل كانت المعلومات الطبية ضمن نوادر الأدب العجيبة والأخبار الموسوعية، فلم يكن هناك مدرس للطب والفلك والصيدلة[5]، بل كانت هذه الأمور تعرف بالممارسة والخبرة الفردية والعلاج والتداوي بالأعشاب الموروث عن الأجداد[6]، ورغم أن الجراحة كانت منعدمة تماما إلا أن الكي والحجامة كانتا شائعتان في الأوساط المغربية، في حين اقتصر علم الكيمياء على صناعة ماء الورد، فقط، فكل شيء تقريبا كان مربوطا بالدين ولخدمة الدين، مما يجعل المعارف المحدودة ويجعل الجمود الفكري مطبقا على ذهنية السكان الذين ركنوا إلى ركود فكري كبير.

الدخان نازلة مشؤومة ومؤامرة أجنبية:

---

(1) أحمد بن محمد البوسعيدي، ورقات من مخطوطة بذل المناصحة في فضل المصافحة، مؤسسة الملك عبد العزيز الدار البيضاء، ص11.

(2) كان الحسن الوزان شديد الملاحظة رغم الأغلاط التي أكثر منها في كتابه وذلك لكون الكتاب، مسترجع من ذاكرته ولم يستند إلى وثائق أو مذكرات أو مراجع؛ الحسن الوزان، مصدر سابق، ص81.

(3) المصدر نفسه، ص80.

(4) المصدر نفسه، ص-ص. 262- 274.

(5) أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، مرجع سابق، ج2، ص354.

(6) الحسن الوزان، مصدر سابق، ص81.

يقول إبراهيم اللقاني ت1041هـ/ 1632م، في كتاب **نصيحة الإخوان باجتناب الدخان** أنه تلقى خبرا من غير واحد بخصوص قدوم هذه العشبة، فهي لم تأت من السودان كما أسلفنا؛ ولكنها دخلت بلاد المسلمين على يد التجار والرحالة الأوروبيين ولا سيما الإنجليز، وأن سبب قدومهم بها هو الترويج لها وبيعها بعدما تأكد لهم ضررها، وبعد أن تم منعها رسميا في بلادهم، إلا الاستعمال اليسير الذي لا ضرر فيه، كما يذكر أيضا أنه ضار للكبد فالمداومة على الدخان تحرق الكبد وتؤدي إلى الموت، وأنه حدث مع واحد من النصارى، أن مات فشرحوه وفي ذلك يقول:« فَوَجَدُوهُ سَارِياً فِي عُرُوقِهِ وَعَصَبِهِ حَتَّى أَنَّ مُخَّ عِظَامِهِ قَدِ اسْوَدَّ وَوُجِدَ قَلْبُهُ مِثْلَ السَّفَنَّجَةِ الْيَابِسَةِ وَفِيهِ أَثْقَابٌ مُتَنَوِّعَةٌ مِنْهَا الصَّغِيرُ وَالْكَبِيرُ، وَوَجَدُوا كَبِدَهُ كَأَنَّهُ مَشْوِيٌّ عَلَى النَّارِ فَمِنْ ذَلِكَ الْوَقْتِ مُنِعْنَا مِنَ الْمُدَاوَمَةِ عَلَيْهِ وَأُمِرُوا بِبَيْعِهِ لِلْمُسْلِمِينَ»[1].

ربط الناس ممن احتاطوا من شربها خبر هذه العشبة وتاريخ ظهورها القريب جدا من سنة 999هـ بنهاية الألفية ومنهم من استنكرها واعتبرها حادثة من حوادث آخر الزمن الذي هو شر الأزمان في نظر المجتمع المغربي بل المجتمعات الإسلامية كلها، وذهبوا في ذلك مذهبا عجيبا إذ أسسوا له انطلاقا من آية قرآنية فيها خبر نهاية العالم، وذلك في قول الله تعالى: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ، فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ، يَغْشَى النَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[2]، وهذا ما تناقله بعض العامة والعلماء أيضا ومنهم عبد الرحمن التامنارتي[3]، كل هذا كان رد فعل متوقع على من تسابق لاستعمالها والاتجار بها والترويج لها،

وبالرجوع إلى عبد الرحمن التامنارتي من جديد؛ نجده ينفي تماما ما يمكن الانتفاع به من الدخان مهما كان، لأن الدخان مطلقا هو نتيجة للنار، وأن الله تعالى إنما خلق النار ودخانها وسمومها عذابا لمن شاء في الآخرة، وبذلك يثبت أن اجتراع النار وسمومها ودخانها تعذيب للنفس وإيلام لها[4]، وأن فتنة استعجال النار بشيء من لواحقها وهو الدخان؛ يوحي بالنار الحقيقية لقول الله تعالى: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ، ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ، هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ﴾[5].

ويروي التامنارتي في هذا الصدد أن الولي أحمد بن موسى السملالي قد كاشف الناس بظهورها قائلا: «سَتَرِدُ عَلَيْكُمْ مِنْ جِهَةِ الْقِبْلَةِ عُشْبَةٌ يَشْرَبُونَ دُخَانَهَا فِي جِعَابٍ، لَا يَشْرِبُهَا إِلَّا أَصْحَابُ الشِّمَال»[6]، وكان في ذلك يقصد الآية الكريمة: ﴿وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ، فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُوم، لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ﴾[7]، فالتمنارتي استدل في إثبات الدخان وخبثه وخبثه بالكثير من المواقف والكرامات وحتى الرؤى والمنام لبعض من اعْتُقِدَ فيهم الصلاح في عصره، وما حكي عن الذين ماتوا

---

(1) جعفر بن إدريس الكتاني، حكم التدخين وتعاطي المفترات والمخدرات، تحقيق هاشم بن محمد حيدر الحسني، دار الكتب العلمية، بيروت، 1971، ص136، 137، نقلا عن كتاب **نصيحة الإخوان**... لإبراهيم اللقاني.

(2) سورة الدخان، الآيات 09، 10، 11.

(3) عبد الرحمن التمنارتي، مصدر سابق، ص480.

(4) المصدر نفسه، ص281.

(5) سورة الذاريات، الآيتان، 13، 14.

(6) التامنارتي، مصدر سابق، ص ص485، 486.

(7) سورة الواقعة، الآيات، 43، 44، 45، 46، 47.

وهم يتعاطون هذه العشبة من تغير وجوههم بعد موتهم وسيلان قطرانها من أفواههم إلى ما هنالك من عبارات الردع والتخويف[1].

وفي مقاربة تأويلية لحديث حذيفة بن اليمان الذي رواه ابن جرير، والبغوي؛ بإسناد ضعيف، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « أَوَّلُ الْآيَاتِ الدَّجَالُ، وَنُزُولُ عِيسَى... وَالدُّخَان»، قال حذيفة: يا رسول الله! وما الدخان؟ فتلا رسول الله صلى الله عليه وسلم آية الدخان، وقال: « يَمْلَأُ مَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ، يَمْكُثُ أَرْبَعِينَ يَوْمًا وَلَيْلَةً، أَمَّا الْمُؤْمِنُ؛ فَيُصِيبُهُ مِنْهُ كَهَيْئَةِ الزُّكْمَةِ، وَيَنْفِخُ الْكَافِرَ حَتَّى يَنْفَذ»، نجد محمد العربي الفاسي يُأَوِّلُ هذا الحديث إلى أهوال وملاحم آخر الزمان الذي هو القرن الحادي عشر الهجري، فما أحداث هذه العشبة وأضرارها وآثارها وانتشارها في المشرق والمغرب إلا تصديقا لما في الحديث.

مقاربات واستنتاجات ختامية:

إن المتتبع لما جاء في كتاب **إصليت الخريت**... وكذا قصيدة الهلالي؛ يمكنه أن يلحظ أثر الإدمان عليهما فأحمد بن ابي محلي الذي يبدوا مدافعا عن العشبة محاولا التبرير لها بالنصوص والقواعد الفقهية بأي طريقة كانت، وإلا ما داعي استعمال شيء جديد بحجة العلاج، فلو كانت من اجل العلاج لكان استعمالها محصورا على فترة العلاج فينتهي عن استعمالها بعد زوال العرض المرضي مباشرة، ومن هنا تبدو حدة الخلاف بين الفقهاء والعلماء في شأن الحكم الشرعي للدخان واضحة جدا، وتظهر عداوة الطرفين الضمنية، أما سعيد بن أبي بكر الهلالي فقد تصدى له العلامة عبد الرحمن التمنارتي وبين أن لا رأي له في الفقه والشريعة وأنه ليس بقاض ولا معروف بفقه ولا طب، ولا هو من أهل رد ولا قبول، وأن رحلته في طلب العلم لم تتجاوز المدينة التي ولد فيها، وهي تارودانت، وأنه لم يتعلم غير مبادئ العربية ولم يعمل إلا كاتبا لدى شرطة المدينة، رحل إلى درعة هاربا من الوباء مقيما فيها إلى أن توفي سنة 1012 أو 1013هـ/ 1604م، كما أن مطلع القصيدة ينبئ عن خلل ذوقها إذ جعل الدخان النتن من نوع الطيب، وانه أشرق في السماء بنوره !! [2] وذلك في قوله:

بَدَتْ فِي سَمَاءِ الْمَجْدِ نُزْهَةُ رَامِقِ *** فَدَانَ لَهَا طَوْعًا شُعَاعُ الْمَشَارِقِ

ولا يلام الهلالي لأن الظاهر وباعترافه أنه مدمن على شربها وذلك واضح من خلال قوله:

لَهَا صَبْوَةٌ لِلْقَاصِدِينَ رُبُوعُهَا *** لَهَا أَبَدًا سُوقٌ لِكُلِّ مُعَانِقِ

فَأُقْسِمُ أَنَّ اللهَ أَلَّفَ بَيْنَهَا *** وَبَيْنَ مِزَاجِ الرُّوحِ مِنْ كُلِّ نَاطِقِ

تواصل الجدل الفقهي في هذه النازلة، حتى القرن التاسع عشر، ومع مطلع القرن العشرين أثبت العلم الحديث خبث هذه العشبة وطريقة معالجتها كيميائا وخطر مستعملها بأي شكل من الأشكال وكتب غفي هذا المجال الكثير من الدراسات العلمية في الطب وغيره.

قائمة المصادر والمراجع:

- القرآن الكريم.

[1] التامنارتي، مصدر سابق، ص ص485، 486.

[2] المصدر نفسه، ص490.

- أبو القاسم سعد الله، شيخ الإسلام عبد الكريم الفكون داعية السلفية، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1986.
- أبو سالم العياشي، ماء الموائد، تحقيق وتقديم سليمان الفاضلي وسعيد القرشي، ط1، دار السويدي للنشر والتوزيع، أبو ظبي، 2006، ج2.
- أحمد بن أبي محلي، إصليت الخريت في قطع بلعوم العفريت النفريت، تحقيق عبد المجيد قدوري، منشورات عكاظ، الرباط، 1991.
- أحمد بن خالد السلاوي الناصري، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق محمد الناصري وجعفر الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1955، ج5.
- أحمد بن محمد البوسعيدي، فصل من مخطوطة بذل المناصحة في فضل المصافحة، مؤسسة الملك عبد العزيز الدار البيضاء.
- البغدادي، في هدية العارفين، وكالة المعارف الجليلة، إسطنبول، 1951، ج1، ص159، محمد البشير ظافر الأزهري، اليواقيت الثمينة في أعيان مذهب أهل المدينة، مطبعة الملاجئ العباسية، القاهرة، 1324هـ.

جعفر بن إدريس الكتاني، حكم التدخين وتعاطي المفترات والمخدرات، تحقيق هاشم بن محمد حيجر الحسني، دار الكتب العلمية، بيروت، 1971.

- الحسن بن محمد الوزان، وصف إفريقيا، تحقيق محمد حجي، محمد الأخضر، ط2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1983، ج1.
- حسين أحمد الخشن، في فقه السلامة الصحية –التدخين نموذجا–، مركز ابن إدريس الحلي للدراسات الفقهية، د.م، 1428هـ.
- داوود الأنطاكي، تذكرة أولي الألباب والجامع لعجب العجاب، وبهامشه النزهة المبهجة في تشحيذ الأذهان وتعديل الأمزجة، طبعة حجرية، ج1.
- سعيد بن أبي بكر السوسي، قصيدة مخطوطة في التبغ، مؤسسة مؤسسة الملك عبد العزيز، الدار البيضاء..
- عبد الحي الكتاني، فهرس الفهارس والأثبات معجم المعاجم والمسلسلات، تحقيق إحسان عباس، ط2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1982، ج1.
- عبد الرحمن التمنارتي، الفوائد الجمة في إسناد علوم الأمة، تقديم، محمد المنوني، ط2، دار الكتب العلمية، بيروت، 2007.
- عبد الله المرابط الترغي، فهارس علماء المغرب منذ النشأة إلى نهاية القرن الثالث عشر للهجرة – منهجيتها تطورها، قيمتها العلمية، ط1، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، تطوان، 1999.
- عبد المجيد قدوري، ابن أبي محلي الفقيه الثائر ورحلته الإصليت، منشورات، عكاظ، الرباط، 1991.

- فيصل مبرك، الواقع السياسي في المغرب الأقصى وأثره في سقوط الدولة السعدية 1603- 1613م، مذكرة ماجستير غير منشورة، جامعة الجزائر -2-، 2011.
- محمد الصغير الإفراني نقلا حرفيا، مع بعض الزيادات والتصرف الطفيف، أنظر محمد الصغير الإفراني، نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي، تصحيح ومراجعة السيد هوادس، مطبعة بردين، أنجى، 1888.
- محمد العربي الفاسي، سهم الإصابة في حكم طابة، مخطوط، مؤسسة آل سعود للدراسات الإسلامية والعلوم الإنسانية، رقم 02168-65..
- محمد بن الطيب القادري، نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني ضمن موسوعة أعلام المغرب، تحقيق: محمد حجي وأحمد التوفيق، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1996، ج1.
- محمد حجي، الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين، منشورات دار المغرب للتأليف الترجمة والنشر، لبدلر البيضاء، د.ت، ج 1.
- محمد عليش، فتح العلي المالك في الفتوى على مذهب الإمام مالك، دار المعرفة، د.م، د.ت، ج1.
- المختار السوسي، سوس العالمة، مطبعة فضالة، المحمدية، المغرب، 1960.
- مد بن محمد المنقور التميمي، الفواكه العديدة في المسائل المفيدة، ط5، الناشر عبد العزي عبد العزيز المنقور، شركة الطباعة العربية السعودية، 1987، ج2.
- مرتضى الزبيدي، تاج العروس، دار الهداية، عمان الأردن، د.ت، ج26.
- مرعي بن يوسف الكرمي، تحقيق البرهان في شأن الدخان الذي يشربه الناس الآن، دار ابن حزم للطباعة والتوزيع والنشر، ط1، بيروت، 2000.
- نجم الدين محمد بن محمد الغزي، الكواكب السائرة في أعيان المائة العاشرة، تحقيق خليل المنصور، دار الكتب العلمية بيروت، ط1، 1997، ج2.